

ملاحظات عن الاستشراق



عمر محمد

باحث في: Centre

d'Études Turques, Ottomanes,
Balkaniques et Centrasiatiques

باريس، فرنسا

إن كتاب (الاستشراق) لـ(إدوارد سعيد) حوّل "الإستشراق" إلى "كلمة فذرة".
(البرت حوراني)

التي لم يشترك بها من المسلمين سوى الترك. وعن ذلك يقول Gustave E. von Grunebaum: "فقط الترك من بين المسلمين نجحوا في التكيف مع التدوين التاريخي الغربي"، في حين كان تلقى المسلمين للاستشراق مرتبطاً فقط بالاستعمار، وإنّ الاستشراق ما هو إلا أداة بيد المستعمر لتدمير الإسلام والمسلمين. إن المواجهة الحقيقية مع الاستشراق ليست في اتهامه، بل

حين يُدرّس الاستشراق كظاهرة معرفية أدت إلى إعادة قراءة التاريخ الإسلامي، ومعرفة أجيال المستشرقين، والشاغل الذي حدث داخل هذه المنظومة المعرفية، لا يمكن بأيّ حال موافقة (سعيد) في طروحاته، أو طروحات من استقبلوا (سعيد) – الذي حوّل الاستشراق إلى مؤامرة تهدف لنزع الإسلام من المسلمين – الذين عجزوا حتى عن مشاركة المستشرقين في أهمّ عمل للاستشراق، وهو (دائرة المعارف الإسلامية)،

للدراستات، بل يتعدى الأمر إلى أبعد من ذلك بكثير، حتى ليبدو هذا (الشرق) مجرد حقل ضمن عشرات الحقول، ولم يعد الشرق هو (الشرق الإسلامي) فقط، بل هناك شرق أوروبي لأوروبا نفسها، وشرق أمريكي وأمريكا، وشرق بريطاني لبريطانيا، وشرق روسي لروسيا، فما هو الشرق بالتحديد المقصود في الاستشراق "طلب الشرق"؟

ثانياً: البعد المعرفي: رغم تواجدي الجديد في (فرنسا)، إلا أنني استتعت، وبعده القراءات النظرية السابقة عن المؤسسات الاستشراقية، أن أتداخل مع مستشرقين فرنسيين، وأكاديميات (استشراقية)، يصعب كثيراً إطلاق هذا المصطلح عليها، يظهر "شرق إدوارد سعيد" بنسبة ضئيلة جداً في كتبها السنوية للدراستات والحقول المطروحة، ففي مؤسستي التي أعمل بها (EHESS)، وفي كتابها السنوي، لا يظهر إلا عدد محدود جداً من الدراستات حول الإسلام، وشرق (إدوارد سعيد)، وأكاد أكون الوحيد الذي أدخل دراسة تاريخية إلى الكتاب السنوي القادم، باعتبار دراستي ستكون عن دولة عربية. وفي محادثات لي مع مؤرخين وباحثين أمريكيين وأوربيين حول مصطلح الاستشراق والشرق Orient, East, Middle East، وحول مصطلح Orientalist, East، لا يميل أكثرهم لاستخدام Historian، لا يميل أكثرهم لاستخدام

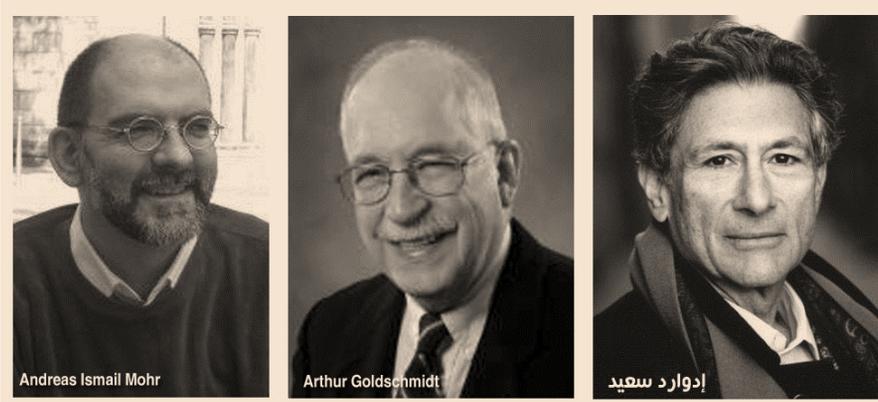
في مراجعة ما كتبه الاستشراق علمياً، واستناداً إلى أدوات معرفية رصينة. والذي لا يعرفه المسلمون أن المستشرقين أنفسهم كانوا يوجهون النقد لتأجراتهم، وإنّ هناك قاعدة لدى المستشرقين، وهي "إنّ الاستشراق يتقدم ويتطور فقط من خلال النقد والتشكيك بما ينتجه المستشرقون، وليس من خلال الموافقة والتأييد".

يبدو الاستشراق، بوصفه مفهوماً لتطور الدراستات الغربية للشرق، ملتزماً بأن يكون (استشراقاً) يدرس الإسلام كهدف أولي له، كمنطبة معرفي، وإهمال كل جوانب العالم الممتد من شرق أوروبا الغربية حتى الصين - المجال الحقيقي للدراستات الاستشراقية القديمة -، ومع تطور الأكاديميات ووصولها إلى أمريكا، وإلى الشرق ذاته، أصبح مصطلح (الاستشراق) بحاجة إلى إعادة نظر جادة، بعد خلو المصطلح من قيمته التي وضعها به (إدوارد سعيد)، حين حدّد الإسلام كمقابل للغرب.

ويمكن النظر إلى مفهوم الاستشراق من جوانب عدة:

أولاً: البعد الجغرافي:

في متابعتي للدراستات الاستشراقية، والأكاديميات الغربية، التي تعتبر رائدة في (الاستشراق)، لا يظهر (الشرق) الذي طرحه (إدوارد سعيد)، هو المجال الوحيد



تخصص فعلاً؟ وهل كل من يدرس المشرق يعتبر مستشرقاً؟ ماذا عن الدراسات والعلوم الاجتماعية والنفسية التي تتناول دول العالم الممتد من شرق أوروبا إلى الصين؟ أو بالأحرى من هم (الشرقيون)؟ في تحديد المستهدف يمكننا أن نجد طريقة مثلى للتعامل مع الاستشراق، أو تحديده اصطلاحياً، وإلا فإن التعامل مع الاستشراق، وفقاً لإدوارد سعيد، سيكون دائماً يؤدي دور الشرير مقابل الخير المضطهد، فالاستشراق لم يعد كما رآه (سعيد)، بل هو حقل معرفي، ورؤية تاريخية أخرى عن تاريخ العالم.

سألني أحد الباحثين الفرنسيين هذا السؤال، وهو سؤال ليس بجديد، وأضيف عليه: لماذا لم يهاجم (سعيد) الاستشراق الروسي؟ وصب كل غضبه على الاستشراق البريطاني، والفرنسي، والأمريكي!

هذه المفاهيم للتعبير عن الدراسات التي تدرس العالم الشرقي (شرقياً افتراضاً للمفهوم القديم)، بل يميلون إلى اعتبارها دراسات تاريخية وعلوم إنسانية نابعة من المعرفة التاريخية ليس إلا. فالبروفيسور المؤرخ (Arthur Goldschmidt) يرفض أن يطلق عليه اسم (مستشرق)، ويفضّل أن يكون (مؤرخاً)، كذلك يرفض (Andreas Ismail Mohr) - المستعرب (أو المختص بالدراسات العربية الإسلامية) - أن يوصف بالمستشرق، رغم أنه قد أكمل الضوابط والشروط والأدوات التي تجعله مستشرقاً، وفقاً للشروط القديمة، كأن يتقن العربية واللغات الشرقية، ويزور بلداناً شرقية. وقبلهم يقول (البرت حوراني) إن (إدوارد سعيد) قد حوّل كلمة "الاستشراق" إلى كلمة "قدرة"، فمن هو المستشرق في هذه الحالة؟ وما هو تخصص المستشرق؟ وهل لديه

الشرقية لـ (كلية إيتون) (Eton College)، التي تأسست عام ١٤٤٠م. المدرسة كانت تعطي أسماء أشهر المستشكفين و(الإمبرياليين) البريطانيين لأقسامها، مثل: (كيتشنر)، (كريمز)، (فوربشر)، وكان ممنوعاً التحدث بالعربية داخل المدرسة، لكنّ (سعيد) كان "متمرداً" و"غريباً" في هذه المدرسة. كان (عمر الشريف)، واسمه الحقيقي (ميخائيل شلهوب)، أحد الذين اعتادوا على ضرب (سعيد) في المدرسة.

على أية حال، بمراجعة كل الذين اعتاد (سعيد) على مهاجمتهم في كتابه (الاستشراق)، نرى أنّ جهودهم العلمية فاقت التصورات، وأنّ نقدم لأعمالهم كان أقوى حتى من نقد (سعيد) لهم.. كانت أعمالهم بمثابة الحجر المؤسس للدراسات العربية والإسلامية في الغرب، ومعظمهم أسسوا للمعرفة الشرقية، التي انتقلت فيما بعد إلى الشرق. ومنذ صعود المدرستين الأمريكية والبريطانية للاستشراق، وضمور المدرسة الألمانية، كان معظم المستشرقين البريطانيين والأمريكيين، ومنهم (هاملتون جب)، الرائد في دراسات الإسلام والحروب الصليبية، كان الكثير من هؤلاء المستشرقين ضدّ فكرة الاستعمار، وكانت آراؤهم السياسية معارضة لحكوماتهم، لكنهم كانوا

يرتبط في محيطة المشرق أنّ (ألمانيا) و(روسيا) هي قوى غير استعمارية، لذلك لا يمكن مهاجمتها، بينما دول أوروبا الأخرى دول استعمرت الشرق! هذا التلقّي لـ(إدوارد سعيد)، في الأوساط العربية، كان أزمة كبيرة للعقل العربي، فالتلقّي العربي – مثل (سعيد) تماماً – يعتقد أنّ الشرق هو العرب فقط، وأنّ العرب هم المسلمون فقط. (سعيد) الذي ربط الاستشراق بالقضية الفلسطينية، وهو المصري الذي ولد في (القدس) عام ١٩٣٥، لأنّ عائلته فضّلت (القدس) على (القاهرة). عائلته مسيحية بروتستانتية من (لبنان)، تلقّى تعليمه في (مصر)، ثم في (الولايات المتحدة)، ولم تكن له هويّة فلسطينية، بل كان مصرياً ثم أمريكياً، وعائلته اعتادت على التصنيف في (لبنان)، كما يبيّن هو ذلك في مذكراته: (Out of Place) (خارج المكان) – وقد عاش في كنف أب متسلّط وأمّ متساهلة. قضى بضعة أشهر في (فلسطين)، لذا فالقول بأنه فلسطيني أمر مثير للتساؤل! لكنه رغم ذلك اعتقد أنه فلسطيني، ووضع نفسه موضع المدافع عن القضية. وقد تربّى في بيئة ثريّة، في منزل اعتاد أن ينادي فيه على الخدم، ودراسته في (القاهرة) كانت في (VictoryCollege)، وهي سلسلة مدارس ثانوية بريطانية، كانت تعتبر النسخة



كلود كوهين



ماسينيون



مكسيم رودنسون



هاملتون جب

المستشرق الماركسي كان أكثر حضوراً في المشرق من المستشرقين الآخرين - فسألته ما معنى أن يكون المستشرق ماركسياً؟ وهل كونه ماركسياً يعني أنه شيوعي؟ كانت إجابته تتعلق بالأجواء الديمقراطية في (فرنسا)، فقال: القضية كلها متعلقة بالديمقراطية، وحرية الرأي، وهذا ما يجعل من (فرنسا) بلداً حرّاً، لأنّ المستشرق وغيره فيها يمارسون الديمقراطية بصورتها الطبيعية.

كلود كوهين ١٩٠٩ - ١٩٩١

وصفه المؤرخ الأمريكي (ايرا لايبندوس) على أنه أعظم مؤرخ للمشرق الأوسط في القرن العشرين.

حين كان (كوهين) بسنّ السادسة جعلته أمه ييكي، حين ربطت بينه وبين مصائب (لويس التاسع) في (مصر)، لكنه، استطاع مبكراً أن يتجاوز هذا الربط، وأنتج أحد أهم أعماله:

يعيشون ضمن البيئة الطبيعية لدولهم، بيئة الديمقراطية، والكثير من المستشرقين الفرنسيين كانوا ماركسيين ويساريين، لكنهم حافظوا على نسق المعرفة الشرقية.

الاستشراق الذي لم يتحدث عنه (إدوارد سعيد) في (الاستشراق)

محاولة عرض الاستشراق على أنه خطاب متجانس يعبر عن الاستعمار، كما أورده (إدوارد سعيد)، أدى بالضرورة إلى إهمال الاسهامات الماركسية للاستشراق، فالاستشراق الروسي سبق وتمت دراسته، لكن الاستشراق الفرنسي أهمل بطريقة ما. وهنا أمثلة أهملها (إدوارد سعيد) في

استشراقه:

في لقاء لي مع المستشرق الفرنسي (نيكولا فاتا)، المختص بالتاريخ العثماني، سألته - في معرض حديثنا عن الاستشراق وكتاب (إدوارد سعيد)، وكيفية تلقي المستشرقين الماركسيين في المشرق، وأنّ تلقى

دائرة المعارف الإسلامية. ومن أشهر مؤلفاته، الكتاب المرجعي والفهرسي: مقدمة لتاريخ العالم الإسلامي في القرون الوسطى بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين (بالفرنسية):

Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval (VIIe -

XV siècle) حيث يتتبع جميع المراجع التي كتبها المستشرقون عن العرب والمسلمين في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها، ويورد لوائح شاملة بكل الوثائق الأثرية والنقوش والمصكوكات المتعلقة بتاريخ العرب والمسلمين، ويشرح كيفية العمل في هذا الميدان وأدواته.

المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون

١٩١٥ - ٢٠٠٤

مثل (كاهين)، جاء من عائلة يهودية. عائلته كانت شيوعية من الطبقة العاملة في (باريس)، وشارك في صباه بمظاهرات مؤيدة لانتفاضة الريف المغربية عام ١٩٢٥، ضد الإدارة الفرنسية. عمل كساعي بريد، وكان يقضي وقت فراغه في المكتبة، حيث تعرّف على مؤلفات (رينان)، وأصبح مهتماً بالفيولوجيا واللغات السامية. وفي النهاية أصبح دارساً للغات السامية، والأهمرية في:

École Spéciale des)

La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche (عام ١٩٤٠).

كان (كوهين) صارماً وقوياً وحيادياً في تعامله مع التراث الإسلامي والمسيحي في الشرق الأدنى، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كان ماركسياً، وصارع لإظهار المنطقة التي درسها باعتبارها منطقة مستقلة ثابتة، بدلاً من عرضها على أنها كانت منطقة خضعت لأوروبا سابقاً، وأعطى اهتماماً كبيراً للطوبوغرافيا والاقتصاد لشمال (سوريا)، وابتعد عن عرض التاريخ باعتباره قصة سردية. وحين حضر مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤، وبعد خطابه الذي أثار دهشة المستشرقين والحاضرين، قام (هاملتون جب) وصافحه بجملة.

لقد سعى (كوهين) إلى ترجمة النصوص العربية القديمة، بدلاً من الاهتمام بالشعر، واعتبره مصدراً غير ذي أهمية في دراسة تاريخ الشرق. وكان هو الوحيد من بين عدد من المستشرقين، من الذين اهتموا بدراسة نصوص القرنين الثاني والثالث عشر.

نشر (مدخل إلى الحروب الصليبية الأولى) في مجلة أكسفورد: (الماضي والحاضر). ومن آثاره إعادة كتابة (المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي) لـ (سوفاجيه)، كما أسهم بمواد في

،LanguesOrientalesVivante

وقضى معظم وقت الحرب في (بيروت)، حيث اتصل بالكثير من الشيوعيين العرب. وفي عام ١٩٥٥ أصبح أستاذاً للغة الأثيوبية القديمة في (ÉcolePratique des HautesÉtudes).

انتمى إلى (الحزب الشيوعي) عام ١٩٣٧ حتى ١٩٥٨. وكمثال للشيوعية، كان ملزماً بالجدال ضدّ كلّ الأدلة التي تقول إنّ اليهود الروس لا يريدون الالتحاق بـ(إسرائيل)، "عبر الصهيونية تمّ اختراق العالم الاشتراكي"، هكذا كان يعتقد. وبينما كان اليهود يسقطون ضحايا تحت حكم (ستالين)، كان (رودنسون) يدافع عن حكم (ستالين)، ويقول إنّ هذه مجرد إشاعات ضدّ الشيوعية، وإنّ معاداة السامية شيء غير موجود. كان يتمنى أن يتمّ تحديث العالم العربي عبر الماركسية.

(رودنسون)، الذي درس مع (ماسنيون)، لا يشاركه الرأي بخصوص الروحانية الإسلامية، فقرّر التركيز على جانب من جوانب الثقافة المادية، فنشر سلسلة من المقالات حول الطبخ العربي في العصر الوسيط، ووصل إلى استنتاج أن ليس كلّ المسلمين كانوا روحانيين، وسواء كانوا روحانيين أم لا، كان يجب عليهم الأكل، ولهذا اهتم بدراسة تاريخ الطبخ العربي.

استشعر (رودنسون) وجود صلة بين الإسلام والشيوعية، فكتب سيرة ذاتية للنبي (محمد)، في ١٩٦١، وقال عنها: "ربّما، بحالة لا شعورية، قارنت (محمد) بـ(ستالين)" □

◀ الاستشراق، بوصفه مفهوماً لتطور الدراسات الغربية للشرق، ملتزماً بأن يكون (استشراقاً) يدرس الإسلام كهدف أولي له، كنمطٍ معرفيٍّ، وإهمال كلّ جوانب العالم الممتدّ من شرق أوروبا الغربية حتى الصين - المجال الحقيقي للدراسات الاستشرافية القديمة، ومع تطوّر الأكاديميات ووصولها إلى أمريكا، وإلى الشرق ذاته، أصبح مصطلح (الاستشراق) بحاجة إلى إعادة نظر جادة، بعد خلّو المصطلح من قيمته التي وضعها به (إدوارد سعيد)، حين حدّد الإسلام كمقابل للغرب ▷